حتّام؟

كمال لقيس

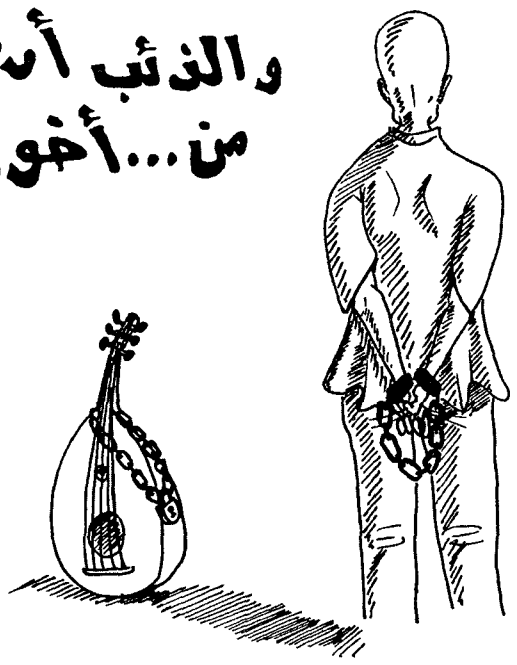

الديموقراطية متابعةٌ يوميةٌ، وفعلُ نضالٍ دؤوب تعزّز من خلال محطاتٍ تاريخيةٍ بارزة: من مرافعة سقراط الشهيرة حول انحراف أثينا عن مبادئ الديموقراطية الحقّة، مروراً بخُطَبِ شيشرون الأربع عشرة ضدّ تعسّف مارك أنطوني وضدّ الابتعاد عن أسس الجمهورية، وصولاً إلى مقاومة ابن رُشد العنيدة لمنفى عقله القسريّ، وتشبُّثِ غاليلو بعقلانية عقله أمام محاكم التفتيش في شأن مسألة دوران الأرض. أما النهضة فهي وعيٌ مطابِقٌ للواقع الجديد، واستجابةٌ موضوعيةٌ لحاجةٍ ملحةٍ في زمنٍ ملحٍّ.

لكنْ في غمرة الأحداث الجِسام، واختلاطِ الأوراق، وتضاربِ المصالح، أصبحت الثنائياتُ المعرفيةُ والمؤدلجةُ في معظم الأحيان (أصالة/حداثة، شورى/ديموقراطية، أصل/نقل، سلفية/عقلانية، معرفة/ايديولوجيا، طائفية/علمانية... الخ) مادةً دسمةً تغزو صفحات اليوميات والدوريات.

فما العمل؟ وأين تكمن المشكلة؟ هل نخرج من التاريخ أم نخرج عليه؟[1] هل نتصالح معه ونعيد قراءتَه وإنتاجَه انطلاقاً من الوضعية الاجتماعية المشخّصة، وبعيداً عن الإسقاطات والإسفاف؟ وإذا كان الردُّ بالإيجاب فإنّ هذه المصالحة تقتضي بالضرورة تصحيحاً لمسار الذات التاريخية، والعودةَ بها إلى الواقع العيانيّ لتكون ذاتاً مستقبليةً؛ فبهذا فقط، يستقيم جدلُ العلاقة بين العامّ والخاصّ، وبين الآنيّ والتاريخيّ.

حتّامَ نبقى أسرى تاريخنا المفخّخ والضبابيّ؟ أظن أنّ هذا الجموح في الكرة الأرضية، والكمّ الهائلَ من الطفرات التقنية والاقتصادية، والتنازعَ اللاهثَ بين مراكز الاستقطاب، وتجذُّرَ قاعدة الاستلاب السلعيّ الذي أصبحتْ بفضله هذه القرية العالميةُ سوقاً كونيةً تعمل يومياً على ابتلاع الناس لتتقيّأهم سِلَعاً... أظنّ أنّ هذا كله يحتّم علينا وقفةً جادةً ومسؤولةً على أرض الواقع لا فوق سحاب الصيف.

فهم يتكتّلون ويوحّدون قواهم السياسيةَ والاقتصاديةَ والأمنية، ويتسابقون لتصريف إنتاجهم في أسواقنا... ونحن حتى الآن لا نجرؤ على التساؤل ما إذا كنّا خيرَ أمةٍ أُخرجتْ للناس أم لا[2].

هُم يُنْتِجون بحسابٍ... ونحن نستهلك بغير حساب.

هم يسخّرون كلّ طاقاتهم البشرية والمادية لإنجاز مشروع الهندسة الوراثية، الذي بموجبه يستطيعون التحكُّمَ بالأمراض المستعصية كالسرطان والإيدز والسكريّ والتلاسيميا في مرحلتها الأولية... ونحن نُسلم رقابَنا للدجّالين والمشعوذين وكشفِ الطالع والتمائم والتعاويذ.

---

١ ـ كريم مروة: **الطريق**، العدد السادس، السنة السابعة والخمسون، صفحة ٢٨.

٢ ـ القرآن، سورة آل عمران، الآية ١١٠: ﴿كنتُمْ خيرَ أمةٍ أُخرِجَتْ للناس، تأمرون بالمعروفِ وتنهَوْنَ عن المُنْكَر...﴾.

هم يقتحمون المرّيخَ عبر المحاولات المتتالية، ويُعِدّون العُدّةَ لسبر مكامن غيره من الكواكب... ونحن ما زلنا نجادل في تأويل الآية الكريمة: ﴿والأرض بَعْدَ ذلك دحاها﴾[1].

هم يكدِّسون القطعَ البشريةَ في مختبراتهم... ونحن على اختلافٍ بيْن تحريمٍ قطعيٍّ للاستنساخ وتفريقٍ بين الخلق والتخليق.

هم يتغنَّوْن بمبادئ مونتسكيو في «فصل السُّلطات» وبمبدإ ديكارت: «أنا أفكر إذاً أنا موجود»... ونحن نستهلك وقتَنا وجهدَنا في التنقيب عمّا اصطُلِحَ على تسميته عندنا بالمرجعية التاريخية المؤهّلة، من **تاريخ الطبري** لدى فريق، إلى **مروج الذهب ومعادن الجوهر** للمسعودي لدى آخر.

هم يبتكرون «النيو ليبرالية» لإخضاعنا، وإلغاءِ الحدود ـ كلِّ الحدود ـ أمام السلعةِ والثقافةِ المسلَّعة، ولطمسِ الهوية القومية والشخصيةِ الوطنية لشعوب الأطراف... ونحن ننام على أحقيّة الإمام عليّ بالخلافة وننهضُ على أحقية الخليفة أبي بكر بها.

هم يروِّجون ليلَ نهار لنظرية فوكوياما في نهاية التاريخ إلا تاريخهم (!)، ويُخْضِعون العالمَ لنظام الأرقام والحسابات، ويتباهَوْن بأنهم أنجبوا ميلتون فريدمان الذي ابتكر إكسيرَ الحياة العصريَّ أي النيو ليبرالية القائمة على إنتاج الربح وحده... ونحن ما زلنا نراهن على تراثٍ مُتْخَمٍ بالنساء والسَّراريّ والاغتيالات والتعذيب، ونستدعي كلماتٍ وعباراتٍ ذاتَ وقعٍ خاصٍّ على أفئدة المؤمنين من العامّة لإذلال الآخر وإلغائه مثل: «زندقة»، و«دعوى تفريق»، و«وقوع الحدّ» و«هَدْر الدم» و«ارتداد» و«إلحاد»... الخ.

هم شرَّعوا ثمرةَ تطوُّرِهم وعلمانيَّتِهم، ـ عنيْتُ الزواجَ المدنيَّ ـ فأنشأوا المحاكمَ التي تنظِّم الزواجَ والطلاقَ والإرثَ، مع احترامهم الزواجَ الكنسيَّ... ونحن هَرَبنا إلى الأمام، ومرةً أخرى حَضَرَ النصُّ ومِنْ بعدِهِ التأويلُ والاجتهادُ لمواجهة هذه «البِدَع» الاستكبارية المضلِّلة، ولإنقاذنا من «الضَّلال» عبر سيلٍ من أنماط الزواج (التعدديّ ـ العرفيّ ـ المسيار ـ المؤقّت... الخ)، وتراءت في الأفق، من جديدٍ، الفتاوى الكبرى وأقلامُ الترهيب والوعيد والتذكير باليوم الكبير.

«إلحادُهم» أو شِرْكهم الذي لا يُغتفر ـ بزَعْمِ مَنْ يُقحِمُ القُرْآنَ ليدلَّل على صوابِ الثَّبات والسكون[2] ـ ألَّفَ كُتُباً لدراسة الموجبات والأسباب الاجتماعية والنفسية التي تقود إلى الانحراف أو السرقة، وأسَّس جمعياتٍ تُعنى عبر مُصْلحين اجتماعيين بأحوال المنحرفين، وأقام مراكز تأهيلية لهذا الغرض... وأما «إيمانُ» بعضنا فقد جَعَلَنا نقطع أيدي السارقين دون أن نعود إلى تحليل أسباب السرقة وتقديم ما يَمْنع تكرارها.

«شِرْكهم» قادهم إلى نقل البشرية في وقتٍ قياسيٍّ، لا يتعدى ثلاثمئة عام، من الجهل المُطْبق إلى الرخاء ورغدِ العيش، فألغوا المسافاتِ، وجعلوا العالمَ كلَّه قريةً صغيرةً (بصرف النظر عن خلفيتهم الإيديولوجية والاقتصادية) بفضل الكهرباء والهاتف والباخرة والإذاعة والتلفاز والطائرة والسيارة والقطار والفاكس والتلكس والخَلَويّ والإنترنت... وضيقُ أفقنا يدفعنا إلى تكبيل بنت السبع بالحجاب كي لا يشتهيها الرجلُ المحكومُ بالغريزة، وإلى منع المصافحة بين الرجال والنساء المحكومات بالشهوة!

هم يملكون قوة الانتقاد... ومعظمُنا يملك قوة «الاعتقاد». ومن يملكْ قوةَ الانتقاد يقتربْ من العلم، ومن يقتربْ من العلم يقاربِ الحقيقة.

هم يقدِّسون لاءات باراك الإستراتيجية... ونحن نَئِدُ لاءاتِ الخرطومِ في منفى التاريخ.

هم يَهَبُون «الجبهةَ الديموقراطيةَ لتحرير فلسطين» صكَّ براءةٍ (وهو بالنسبة إلينا صكُّ إدانة!) برفع اسمها عن لائحة الإرهابِ الدوليّ، لأنها قد تضطلع بدورٍ مّا في المفاوضات الفلسطينية ـ الإسرائيلية... ونحن ـ عَبْر «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» ـ نكافئهم بمزيدٍ من التنازلات وفتحِ بابِ الحوار مع السلطة الفلسطينية، لتقرير صيغةِ نهايةِ فلسطين لا صيغةِ الحلّ النهائيّ لقضية فلسطين.

هم يَهْزأون بالتاريخ وصيرورته، يجسِّدون نظريةَ هيغل في مَكْر التاريخ أسوأَ تجسيدٍ، يَقْلبون الاستثناء قاعدةً، يُتْقِنون اللعبةَ السياسيةَ في عصر العولمة الجديدة. وتحت شعار الدفاع عن حقوق الإنسان، وحقِّ الأقليّات، يتدخلون في الشؤون الداخلية للدول الحرّة، فيجتاحون يوغوسلافيا بذريعة الدفاع عن حقوق الأقلية المسلمة في كوسوفو، وهدفُهم في الواقع إذلالُ روسيا وتحقيرُ أوروبا في عقر دارها. ثم يعيدون الكَرّةَ في أندونيسيا بحجة إنجاز استقلال تيمور الشرقية، ذاتِ الأقلية المسيحية في أندونيسيا المسلمة، وهدفُهم في الحقيقة إيجادُ

---

١ ـ القرآن، سورة النازعات، الآية ٣٠، ويستند بعضُ الدارسين إلى هذه الآية للتأكيد على ذِكْرِ كرويّة الأرض في القرآن. وردُّنا عليهم يؤكد أنْ ليس ثمة كلمةً بين دفّتَي القرآن تشيرُ إلى كروية الأرض، ونُحيلهم، في هذا الصدد، على مصدريْن اثنيْن: الطبري: **جامع البيان في تفسير القرآن**، دار المعرفة، بيروت، الجزء ٣٠، ص ٣٠، حيث نقرأ: «الدَّحْو إنما هو البسطُ في كلام العرب، ودحاها: بسطها»... وابن منظور: **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، الجزء ١٤، صفحة ٢٥١، حيث نقرأ: «الدَّحْو: البَسْط...، والأُدْحِيُ والإدْحِيُ والأُدْحِيَةُ والإدْحِيَةُ والأُدْحُوّة: مَبيضُ النَّعَامة في الرمل... لأنّ النعام تدحوه برجلها ثم تبيض فيه، وليس للنَّعامة عُشّ».

٢ ـ القرآن، سورة النساء، الآية ٤٨: ﴿إنّ اللّهَ لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ به ويغفِرُ ما دُون ذلك لمن يشاءُ، ومنْ يُشْرِكْ بالله فَقَدِ افترى إثماً عَظيماً﴾.

موطئ قدمٍ في آسيا. وحرصاً منهم على إحلال «الديموقراطية والسلام» في العراق، نراهم يستبيحون أمنه وكرامته وغذاءَ أطفاله، مستخدمين أرقى ما توصّلتْ إليه تكنولوجيا عولمتهم... ونحن نواجههم بسيلٍ من التشرذم والتشتت والقطرية.

هم يَمْنحون نجيب محفوظ جائزةَ نوبل للآداب (١٩٨٨) لقوله بالتطبيع مع «إسرائيل»... ونحن نحاول اغتيالَهُ بعد مرور ثلاثةٍ وأربعين عاماً على تأليفه رواية **أولاد حارتنا** ونتّهمه بالارتداد (الجبلاوي وأهل بيته في الرواية يرمزون إلى اللّه وآدم وعيسى ومحمد والعلم الحديث...).

هم يكرِّمون أمين معلوف بمنحه جائزة «غونكور» على روايته **صخرة طانيوس** من ناحية، ويسعّرون حملتهم ضدّ إدوارد سعيد من ناحية أخرى لأنّ الثقافة الحقة نقيض الإمبريالية... ونحن نرفع دعوى تفريق نصر حامد أبي زيد عن زوجته، لأنه اجتهد وقال باعتبار النصّ القرآنيّ بشرياً بعد انتهاء الوحي.

هم ينكبُّون على تنظيم اللقاءات، والتنسيقِ فيما بينهم، لاحتواء ما اصطُلِحَ على تسميته «بمشكلة العام ٢٠٠٠» في أنظمة الحاسوب والإنترنت... وبعضُ أسباط يعرب وإسماعيل يُطِلُّون على الألفية الثالثة بمأثرة مآثرهم التي سيفاخِرون بها الأممَ. وأعني قضيةَ مرسيل خليفة مع يوسف!

إذا كانت الثقافةُ ثروةً وثورةً،

إذا كانت الثقافة هي قول «اللاّ في زمن النَّعَم»،

إذا كانت الثقافةُ فكراً متحرراً وعقلاً مستنيراً،

إذا كانت الثقافةُ اختصاراً لفترة الحَمْل، وتلطيفاً لآلام الولادة والبعث،

فإنّ قضية مرسيل لهي قضيةٌ ثقافيةٌ بامتياز:

- فهل في إيصال مفاهيم قرآنيةٍ أخلاقيةٍ إلى شعوب العرب قاطبةً، على اختلاف مِلَلِهم ونِحَلِهم (مسلمين ومسيحيين وعلمانيين وملحدين...) ما يثير الإدانة؟

- وهل في استشعار الخطر الداهم، الناتج عن الضغينة والتفرق والفردية والتفرد، وفي إيصال رسالةٍ رمزيةٍ مِنْ نصٍّ له ما لَهُ من تأثيرٍ عظيمٍ في لاوعي الأكثرية الساحقة وفي وعي البقية الباقية، ما يستدعي الشجبَ والتكفيرَ؟

كيف ندين مَنْ أعطى مأساةَ يوسف مع إخوته بعداً جمالياً خلاّقاً، بواسطة آلةٍ موسيقيةٍ تراثيةٍ عربيةٍ إسلاميةٍ (هي العود) - ومرسيل هو مَنْ هو في الأداء واللحن واختيار النص؟

إنّ مَنِ اختار، بملء وعيه وإرادته وقناعته، حَمْلَ لواءِ قضايا العرب الوطنية والقومية، وبَذَلَ كلّ جهده ووقته للدفاع عن مُزارع التبغ وطفلِ الحجارة وبائع الخضار والسائقِ والمناضلِ والهوية، لا يسيء أبداً إلى مقدّسات جماهيره.

ألم يقتدِ مرسيل الذي قاوَمَ ضغطَ الانعزال منذ البداية، وانسلخَ عن محيطه [الطائفيّ] انتصاراً لقناعاته، ورَفَضَ التملق والابتذالَ والتسكّعَ على باب السلطان، بيوسف؟[1].

إنّ مَنْ يؤْمن بالحرية وحقِّ الاختلاف والخبز والسُّكر واللّيلك لا يمكنه إلا أن يجلّ اعتقادَ شعبه ومريديه. ومن يَدِنْ غيرَه بغير حقٍّ يُدَنْ.

وإنّ مَنْ يتحلّى بالشفافية، وبالجرأة أولاً، وبالجرأة ثانياً، وبالجرأة أبداً، ويتحصّنُ بالثقافة لأنها آخرُ قلاعنا، لا يدين ولا يمكن أن يدان.

ونحن على موعدٍ مع مرسيل ومع «غنائية الجسد» [شريطِه القادم]، ومع جولة جديدة في معركة الثقافة.

* * *

وبعد، أيها السادة،

حتّامَ نبقى أقزاماً لا نتقبل فكرة إعادة بناء أدمغتنا؟

حتّامَ يُقاضى القتيلُ، حتى في قبره؟

حتّامَ يظلّ القاتلُ هو الخصمَ والحكمَ؟

ما أقبحنا! ما أصغرَنا!

كوني عاقراً، أرضَ العرب: فالحمْلُ مخيفٌ، قَبْلَ انتهاء فصول هذه المسرحية الهزلية!.

شتورة، لبنان

---

١ - ويوسف هذا كان قد أثار غيرةَ إخوته العشرة من أبيه (ما عدا بنيامين الصغير، أخاه من أمه راحيل وأبيه يعقوب) بسبب حلم رآه وقصّهُ على أبيه، فخشي هذا الأخيرُ عليه من حقد إخوته، الذين اصطحبوه في نزهةٍ ورموه في غياهب الجبّ، وادّعوا أنّ الذئب أكلهُ (وهذا ما حدا بمرسيل خليفة أن يُنشد بأنّ «الذئب» كان «أرحمَ» من إخوة يوسف عليه)، فَعَثَرَ عليه أحدُ المسافرين، وباعه بدراهم معدودةٍ إلى إحدى الشخصيات البارزة في البلاط الفرعونيّ، أيْ «فوتفار» زوج «زوليخا»، التي أعجبها حُسْنُ تصرّف يوسف ووسامتُه، فحاولتْ إغواءه، لكنه تمنّعَ، مرجِّحاً بذلك كفةَ العفّةِ على كفّة الشهوة. فشكَتْه ظُلْماً إلى زوجها، الذي رماه في السجن تسعَ سنين. وذاتَ ليلةٍ، حلم الفرعونُ أنّ سبع بقرات عجاف يأكلن سبع بقراتٍ سمان. ففسّر يوسف هذا الحلمَ بأنّ أرض مصر ستشهد سبعَ سنوات شداد تلي سبعَ سنوات رخيّة، ونصح بتخزين الحبوب وشرائها من الخارج في الفترة الرخيّة. فأرسل يعقوب أولاده لشراء الحبوب من مصر، فتعرّف عليهم يوسف، وطلب منهم إحضارَ بنيامين لإتمام الصفقة، وعندما حضر أقام له حفلةً دَسّ في نهايتها كأساً ذهبيةً في متاعه واتّهَمَهُ بسرقتها، وحَكَمَ عليه بأن يصبح عبداً له. ولمّا بادر أحدُ إخوته لافتدائه، تأثّر يوسف بالموقف، وأطْلعهم على حقيقة أمره، وطلب منهم إحضارَ والده، وعاشوا سوياً. وبذلك، يكون يوسف قد بادل إساءة إخوته بإحسانه إليهم.